

ظاهرة النفاق

بقلم : ابن الزمان

إن الآفات الاجتماعية والنفسية ليست أقل خطراً في كثير من الأحوال من الأمراض الجسمانية • سواء أردنا من ذلك الخطر على الفرد ، أو الخطر على الجماعة • بل لا نعدو وجه الصواب أبداً إذا قلنا ان تلك الآفات كثيراً ما تكون أسرع في التفشي وأفتك بالكيان العام من أشنع الأمراض الوبائية المعروفة التي تجتاح الشعوب حيناً بعد حين •• وربما كان (النفاق) في طليعة هاتيك الآفات •

ما النفاق ؟ ومن المنافقون ؟

ولدى الاستئناس بمعاجم اللغة من جهة ، والنظر الى مجموع تصرفات المنافقين من جهة ثانية نستطيع تعريف النفاق على النحو التالي : « النفاق هو إظهار الشيء مع إضمار غيره ، أو إخفاء الشيء مع إظهار غيره » • قال تعالى يصفهم : (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) • وتتعريف آخر : « النفاق هو المقدرة على التلون - سلوكياً - بلونين على الأقل وذلك بحسب مقتضى الحال » • وعلى

هذا فالمنافق مخلوق أوتي مقدرة خاصة على خداع الآخرين وإيهامهم بأنه منهم بمنزلة الشيء الواحد فيما يحبون أو يكرهون ، وفيما يؤمنون أو يكفرون ، في حين أنه بالبراعة ذاتها متملك ثقة أخصامهم الكائنين أو الذين سيكونون •
وهنا نجد أنفسنا مدعوين للتمييز بين « النفاق » من جهة ، وبين ما قد يبدو مشابهاً له بالشكل أو مرادفاً له بالمعنى من جهة أخرى ، لكي تستبين لنا جوانب الأمر كله إن أمكن •

أ - (النفاق) و (الكذب) :

أليس الكذب هو النفاق بعينه ؟
والجواب على ذلك : « لا » ونقول
« لا » لعدة أسباب أولها : أن الكذب
علامة من علامات النفاق وليس
النفاق نفسه • جاء في الحديث
الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا
حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ،
وإذا أؤتمن خان » • وثانيها : أن
الكذب وسيلة من وسائل النفاق
وليس النفاق ذاته • وثالثها : أن
الكذب يكون باللسان أما النفاق
فيكون بالجوارح جميعاً : - بالعين
مثلاً : (غمزة ماكرة أو دمعة
مصطنعة !)

- بالأنف : (نخرة استخفاف)
- بالشفتين : (زمة امتعاض •)
- بالفم : (ابتسامة رضى
وموافقة •)
- بالرأس : (هزة رفض أو
انحناءة احترام •)

- بقسمات الوجه كله : (تشنجات)
ألم أو استرخاءات ارتياح •)
- بالبنان : (إشارة مختلصة
بفصد النهي أو التشجيع •)
- بالأسنان : (صريفها إظهاراً

للغيظ •• أو العض بها على الأصبع
إظهاراً للندم •)

- بالكشف : (رفعه • لامبالاة •)
- بالعطف : (ثنيه • إعراضاً •)
- بالرئتين : (زفرة تنهدٍ
وتحسر •) •• وغير ذلك كثير •

ورابعها : أن محل الكذب ظاهر
وهو (اللسان) • أما محل النفاق
فخفي وهو (القلب) •

وخامسها : أن الكذب - بناء
على ما سلف - قد ينظي أمره على
الناس ، ولكن لفترة ، وقديماً
قالوا : (جبل الكذب قصير) • أما
النفاق فلكثره وسائله واستتار محله
فانه ينظي على الناس لأمد أطول
بكثير ، وقد لا ينكشف إلا بمحض
المصادفة ولا سيما إذا كان المنافق
بارعاً والمنافق له ساذجاً بريئاً •

ب - (النفاق) و (الخيانة) :

ولسائل أن يسأل كذلك : أليست
الخيانة هي النفاق ؟ والجواب على
ذلك أيضاً « لا »

لماذا ؟ أولاً : الخيانة (موقف)
أما النفاق (سلوك) •
ثانياً : الخيانة تقع مرة واحدة
ثم يصنف صاحبها في زمرة الخائنين ،

ويتم تحديد الصلة به •

أما النفاق فشيء مستمر خفي وغير مرئي • ولكي تتضح الصورة أكثر نستعير مصطلحات الطب فنقول : الخيانة (حُمى) والنفاق (سل) • في الحمى ترتفع درجة الحرارة فجأة وبحدة فيكون إنذاراً تتخذ له جميع التدابير العلاجية والوقائية بالسرعة اللازمة ، فيقف كل شيء عند حده ويسلم الجسم • أما في السل فلا إنذار ، وعندما يبدأ المسلول يحس بأنه مسلول يكون كل شيء قد انتهى تقريباً بعد أن قضى الداء وطره من ضحيته على مر العديد من الشهور أو السنين ! •
ثالثاً : الخائن في وقت الخيانة - صريح ولو مع نفسه على الأقل - وهي صراحة لا يحسد عليها على أي حال - أما المنافق فهو مخادع كذاب حتى على نفسه ودون اتباه منه أو شعور • قال تعالى في المنافقين : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون • »

ج - (النفاق) و (الرياء) :

ولقائل أن يقول أيضاً : وماذا يختلف

الرياء عن النفاق ؟ أليس هذا هو ذلك ؟ أو ذاك هو هذا ؟ • ونجيب للمرة الثالثة بـ (لا) لأن النفاق يظل أحظ مرتبة وأندل خلقاً ! • •
صحيح أن الرياء هو صنو النفاق من حيث إن محل كل منهما القلب • والفصل في شأنهما منوط بالنية والذي يحكم على النوايا والقلوب هو الله • • إلا أن ما بين الرياء والنفاق دركات عديدة على السلم الهابط تجعل النفاق أدنى وأسفل من الرياء بكثير •

وأول تلك الدركات : أن الرياء يحمل في طياته عنصري ° (السلب والإيجاب معاً) فالمرائي مثلاً قد يتبرع بمبلغ من المال لمشروع خيري - وهذا هو عنصر الإيجاب - ولكن ليس لرغبة خالصة في الخير وإنما ليثري أمام الناس أنه محسن جواد - وهذا هو عنصر السلب - والمرائي قد يذهب للجهاد فيقاتل ويقتل • الذهاب بجد ذاته عمل إيجابي وإن كان المقصد سلبياً كأن يكون شهرة أو مطعماً أو غير ذلك • • إلا أنه في الحالين : حال التبرع وحال الجهاد قدّم للمجتمع شيئاً إيجابياً وأسدى

للأمة جميلاً ومعروفاً - ومن المهم هنا أن يلاحظ أننا قلنا (قدّم للمجتمع) ولم نقل (قدّم لنفسه) ذلك أنه ليس مع الرياء بالنسبة للمرائي ثواب ولا (إيجاب) - •

في حين أن النفاق لا يحمل في طياته إلا السلبية المطلقة والضرر القاتل لصاحبه وللمجتمع على حد سواء • إذ أن المنافق يعطي - إذا أعطى - باليد ما سيأخذ أضعاف أضعافه باليد الأخرى •

والمنافق قد يذهب للحرب ولكن لينهزم أو يرتد على عقبيه في أخرج اللحظات ، وأي عربي ومسلم لا يذكر موقف المنافق الأول (عبد الله بن أبي) عندما خذل رسول الله صلى الله عليه وسلم في منتصف الطريق إلى (أُمّ) ورجع بثلاث الجيش إلى (المدينة) • وكل حخته فيما فعل قوله : « ما ندري علام تقتل أنفسنا • »؟! • فأية خسة تعدل هذه الخسة ؟ وأي غدر يداني هذا الغدر ؟؟

وثانيتها : أن (الرياء) عكسه (الإخلاص) أما (النفاق) فعكسه (الإيمان) وعلى هذا فالمرائي

(غير مخلص) أما المنافق (فغير مؤمن) وشتان شتان ما بين (عدم الإخلاص) و (عدم الإيمان) !! (عدم الإيمان) كفر " لا ريب بينما (عدم الإخلاص) هو نقص في مرتبة الإيمان أو ضعف فيه ليس غير !! • ومن هنا كان مقر المنافقين في جهنم مع الكافرين أو أسفل منهم لقوله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » بل إن الله عز وجل ليتوعدهم بالجحيم واللعنة والعذاب قبل الكفار في قوله : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » •

* * *

وبعد ••• فما تفسير تلك الظاهرة ، ظاهرة النفاق في مجتمع ما ؟ وما النتائج التي تترتب على تلك الظاهرة لدى بروزها في ذلك المجتمع ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال بشقيه لا بد من المبادرة إلى تقرير حقيقة لا مرأى فيها ، تلك أن (ظاهرة النفاق) قلّ أن يخلو منها

ولدى إجابة الفكر والنظر نجد أن
أخصب ترب النفاق ، وأحسن
المناخات ملاءمة (لتفقيس) المنافقين
بأعداد ضخمة هائلة ، هي تلك الترب
والمناخات التي تتوفر فيها ما يلي :
١ - (الاستغلال الطبقي والظلم
الاجتماعي) : حيث يكون مقطع
الرزق بيد آحاد من الناس ، هم
الذين يتحكمون بالأعناق والأرزاق
ويرددون مع الشاعر قوله :

ملكنا مقطع الرزق
فأفقرنا وأغنيبا

وعندها يتهافت الناس من ذوي
الحاجات ، الباحثون عن رقعة
الكساء أو الرغيف • يتهافتون على
الأبواب والأعتاب ، متوسلين إليهم
بشتى الوسائل المهينة ولا سيما
(النفاق) • وفي هذه الحال يصبح
الشعار المتداول : (من لا ينافق
لا يأكل) ، وفي هذه الحال تصبح
القراءة المنطقية لبيت (بشار)^(١)
على النحو التالي :

يسقط (البطن) حيث ينتشر (الأكل)
وتعشى منازل (الكبراء)

مجتمع ماسواء في القديم أو الحديث •
ولكن الذي لا مرأ فيه أيضاً هو أن
نسبة المنافقين تختلف من مجتمع الى
آخر قلة وكثرة •• إذ بينما تكاد
تخلو منهم بعض المجتمعات ، نجد
أنهم يشكلون السواد الأعظم في
بعضها الآخر !••

نعود الآن الى السؤال ونبدأ
بالشق الأول منه :

(تفسير الظاهرة) :

ان الذي يرصد سلوكية المجتمعات
ويتتبع أخلاقية أفرادها يجد أن
مردّ (الظاهرة) يرجع الى عاملين
اثنين : أولهما يتصل بالفرد ،
وثانيهما يتعلق بالجماعة •

أما الذي يتصل بالفرد ، فذلك
ما نعني به : الاستعداد النفساني
الذاتي الخاص المتوفر لدى بعض
الأفراد للقيام بدور المنافق ، وممارسة
حرفة النفاق بحيث لا يستطيع أحدهم
أن يعيش إلا منافقاً !•

وأما ما يتعلق بالجماعة ، فنعني
به : المناخ الاجتماعي العام الذي
يعيش الفرد في إطاره ويتأثر به
ويكتسب منه (سلوكيته وقيمه) •

(١) أصل البيت « يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغش منازل الكرماء »

٢ - (الاستبداد السياسي)
الأمر الذي يترتب عليه مباشرة
(الإرهاب الجسدي والحجر
الفكري) :

ففي حال الاستبداد السياسي
يتحتم على الجميع أن يفكروا بعقل
واحد - هو عقل المستبد - وأن
يروا بعينه ، وأن ينطقوا بلسانه .
وإذا ما سولت لأحد منهم نفسه
أن يقول ما يعتقد أو ينصح بما يعلم
أنه الصواب والحق - مخالفاً أو
معارضاً - فذلك هو الخائن العميل
المارق . . . وذلك هو الذي يستحق
الجلد والرجم والسلب جميعاً ! . . .
وأكرم - آتئذ - بسوق النفاق
من سوق رابحة مثرية ! فالمنافقون
بالاستعداد والسليقة يتوافدون
عليها من كل حذب وصوب . . .
والمترددون الواقفون على مفترق
الطريق - وهم في الغالب كثرة
بالغة - فهؤلاء لا يلبثون أن يسقطوا
في الحمأة ثم يصبحوا من كبار
المضارين . . . أما الشرفاء فينسحقون
في زحام (البورصة) ولا يبقى منهم
إلا كل طويل عمر ! . . .

ألا ما أعجب تلك السوق !؟

- اللب فيها أسود !
- والليل مشمس !
- والأرض مسطحة وخسء من
قال انها تدور !

- وموزمبيق بركان ينبع من
البحر الميت ويصب في الهيمالايا !؟
- وهيلاسلاسي هو أول رائد
فضاء مشى على سطح القمر !؟ . . .
ويبقى الآن الشق الثاني من
السؤال :

(النتائج المترتبة على بروز
الظاهرة في المجتمع)

لعل الجواب من الوضوح بحيث
لا يحتاج المرء معه الى كلام ! . . .
إن مجتمعاً - أي مجتمع - يعمه
النفاق ويأخذ بزمامه المنافقون لهو
مجتمع متفسخ ، فاسد ، منهار . . .
مجتمع بلا قيم ، بلا مثل ، بلا
مستقبل . . . الحقيقة فيه ضائعة ،
والضامئ ميته ، والشرف مهان ،
والطاقات معطلة ، والسفينة تائهة
ضالة توشك أن تبتلعها الأمواج
وتهوي بها في قرار سحيق .
المنافقون مخلوقات وضيعة تنعق
مع كل ناعق ، وتصفق مع كل مصفق ،
وتصفّر مع كل مصفّر . . . هم

وأخيراً .. هل من علاج ؟ هل من
عاصم ؟ وكيف السبيل ؟

إن هذا المقال لا يمكن أن يدعي
لنفسه القدرة على تقديم العلاج
النهائي الحاسم ، فالباب يظل مفتوحاً
لكل دارس .. ولكنه يزعم المقدرة
على اقتراح ما من شأنه أن يكون
عوامل وقائية على الأقل ، عوامل
تقطع الطريق على المنافقين ، وتحول
دون استشرائهم ، الأمر الذي يؤدي
الى كساد سوقهم ، وتدني عددهم
الى أقل نسبة ممكنة .

وإننا لنجمل الاقتراحات في النقاط
التالية :

* - لا بد من (الحرية) أولاً
.. الحرية بمفهومها البكر ، كما
برأتها يد الله .. الحرية التي لم
تفسدها تعريفات الفلاسفة ، ولم
تطمس معالمها فذلكات المنمنطقين ..
فالحرية - في رأينا - لا تتجزأ
ولا تترقع . ولا تحتل التسميات
المستعارة ولا التقنين كما أنها
لا تعنى الفوضى بحال من الأحوال
.. (الحرية هي الحرية فقط)
والإنسان إما (حرٌّ) وإما (عبد)
ولا ثالث بينهما .

كثيرون في الرخاء ولكنهم أصغار عند
البلاء ، وما أصدق هذا القول فيهم :

وإني لأفتح عيني حين أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحداً
المنافقون ليس لهم ولاء ، وليس
عليهم معتمد .. كم زينوا الإثم
لصاحبه فوق ؟!

والغرور للمصاب به فانقصم ؟
والبغي للمهيا له فبغى وظلم ؟! ..

كم قوّضوا من ممالك ؟ .. وكم
لغموا من صروح ! .. وكم أشعلوا
من فتن ؟! ..

المنافقون ليس لهم وطن - وإن
اتسبوا اليه - ، وليس لهم دين
- وإن ادعوه - ، وليس لهم
صديق - مهما أخلص إليهم وتظاهروا
بالوفاء له - ودأبهم أنهم دائماً :

(يعيشون مع الذئب

ويكون من الراعي !)

المنافقون .. خاب كل من ركن
إليهم ، وهلك - ولو بعد حين -
كل من وثق بهم أو اعتمد عليهم .
.. وياضيعة أمة ، وياويل شعب ،
ويا خراب ديار ، ويا فناء مجتمع
غلب عليه منافقوه ؟!

* * *

فحيث تسود الحرية - بهذا المفهوم - سيادة شاملة كالنور وكالهواء لا يحجبها شيء عن شيء .. فهناك تتضح الحقيقة ، ويخصب الفكر ، ويزدهر العقل ، وتصطرع الآراء ليذهب الزبد جفاء ، وليمكث النافع في الأرض (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ..

وهل مثل النفاق زبد؟ وهل كالمناققين غشاء؟؟

* - ولا بد من (الأمن) ثانياً .. أمن الفرد على نفسه في عرضه وفي جسمه وفي ماله . فمجتمع الرعب والخوف (الخوف على الكرامة أو على الرزق واللحمة أو على الحياة) مجتمع لا مجال فيه للاخلاص ، ولا مكان فيه للصدق . بل المكان كل المكان للانتهاز .. للمراوغة .. للنفاق .

* - ولا بد ثالثاً وأخيراً من (العدل) .. العدل الذي يضع كل إنسان حيث تؤهله امكانياته العلمية والعملية والخلقية .. العدل الذي

يحقق تكافؤ الفرص للجميع وفي جميع المجالات على حد سواء ، بحيث يرتفع الفرد بطاقاته المبدعة المنتجة ، وبمواهبه الخيرة - إذا ارتفع .. ويهبط بخموله وغبائه - إذا هبط ..

وآئنذ - في مجتمع العدل - لا يضطر صاحب الموهبة الى الاختيار بين (الهرب) أو (الالتفاف) كيما يصل الى بعض حقه . ولا يجبر صاحب الخبرة والطاقة الى (بذل ماء الوجه) حتى يبلغ بعض مكائته .. وبالتالي فان جميع الأبواب - في مجتمع العدل - توصل في وجوه الأفاكين ، المنافقين ، (المدّوّبلين) ! * - أما الذين لا تنفع معهم (حرية) ، ولا يجدي معهم (أمن) ، ولا يرقى بهم (عدل) - وهم في الأصل قلة قليلة - فأولئك هم المنافقون حقاً .. المنافقون بالسليقة وبالاستعداد .. وأولئك عليهم اللعنة . وجزاؤهم في الدنيا مصحات" يحجرون فيها ، أو ضرب الأعناق .. والى الجحيم .